معهد الدين القيم

بإشراف الشيخ أبي الحسن علي الرملي

تفريغ دروس جوامع الأخبار

شرح الشيخ محمود الراعوش حفظه الله

المستوى الثاني

الدرس رقم (28)

التاريخ: الاثنين 04/جمادى الأولى/1441 هـ

30/ديسمبر/2019 م

شرحُ الأحاديث: (٧٢، ٧٣، ٧٤)

- ◊ ملخص الدرس:

✿ الحديثُ (٧٢): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ) فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حسنا، ونعله حسنا؟ فقال: (إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ. الْكِبْرُ: بَطَرُ الحق، وغمط الناس». رواه مسلم (٩١).

- فيه تعريف الكبر، وذمه، وبيان خطره، والحث على ضده وهو التواضع للحق والخلق.
- قوله: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»:
  - دليل أن الكبر من الكبائر، وبعضه كفر أكبر: إذا استحله، أو كان على الله ورسله وآياته.
  - وليس معنى هذه الجملة أن المسلم المتكبر لا يدخل الجنة أبدا؛ بل المراد أنه:-
    - لا يدخُلُها كافر ولا مستحل للكبر أبدا.
    - ولا يدخُلُها مسلم متكبر إلا بعد أن يعذب بالنار؛ إلا أن يعفو الله عنه لأنه تحت المشيئة.
  - وعلى هذا المعنى تُحملُ جميعُ النصوص الوارد فيها الخلودُ في النار أو نفيُ دخول الجنة. أجمع أهل السنة والجماعة على هذا خلافا للوعيدية.
- قوله«مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهَ»: فيه أن أصل الكبر في القلب، ولكنه ليس محصورا في القلب؛ بل يقعُ الكبرُ بالأقوال وهو الفخر، وبالأفعال كالخيلاء والتبختر والمرح والصعار.
- قولُهُ:«مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» أي ولو كان قليلا بوزن نملة.
- ثم بين عليه السلام حقيقة الكبر:
  - فبين أن التجمل بالمباحات ليس من الكبر.
  - ولكن الكبر: "بَطَرُ الحق، وغمْط الناس". أي إبطالُ الحق ورده، واحتقارُ الناس.

وفي رواية: الكبرُ "سَفَهُ الحق وغمْصُ الناس" بنفس المعنى.

✿ الحديثُ (٧٣): عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

- الفلاح هو: "حصول المطلوب والنجاة من المرهوب".
- الكفاف هو: "ما يكف عن الناس وليس فيه زيادة".
- القناعة هي رضا القلب. وهي بيد الله وحده.
- "آتاه" بالمد: أعطاه. و"أتاه" بالقطع: جاءه.
- هذه الخصال الثلاث سبب الفلاح في الدارين؛ وهي: الإسلام والكفاف مع القناعة.
- أي أن سعادة الدارين للمسلم الذي حاله وسط بين الغنى المطغي والفقر المدقع؛ إذا أنعم الله عليه بالرضا بذلك.

✿ الحديثُ (٧٤): عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عِظْنِي وَأَوْجِزْ. فَقَالَ: إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صلاة مودع، ولا تَكَلَّم بكلام تعتذر مِنْهُ غَدًا، وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي الناس». رواه أحمد.

- هذا حديث ضعيف الإسناد، حسن بشواهده. انظر "الصحيحة": (٤٠١، ٣٥٤، ١٩١٤).
- واشتمل على ثلاث وصايا نافعة جامعة في بابها.
- ◆ الوصية الأولى:"إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صلاة مودع".

- أي أتقنها على أكمل وجه كأنها آخر صلاة لك في هذه الحياة.
- وتحقيق ذلك يكون بإحسان الصلاة ظاهرا وباطنا، أما ظاهرا فباتباع السنة وبالاطمئنان في الأركان. وأما باطنا فبإخلاصها لله، وبالخشوع فيها وهو"حضور القلب".
- والغاية من ذلك بلوغ درجة الإحسان، وهي أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ، فَإِنَّمَا يُنَاجِي رَبَّهُ» متفق عليه.

- ● فهذه وصية نافعة لإصلاح الصلاة؛ لمن يعاني من ضعف الخشوع ولا يتلذذ بصلاته، حتى إن بعض الناس يترك بعض الصلوات بسبب ذلك، وإذا أحسن العبد صلاته صارت قرةُ عينه في الصلاة.
- ◆ الوصية الثانية:"ولا تَكلَّم بكلام تعتذر مِنْهُ غَدًا".
- ● هذه في التريث قبل الكلام وتدبره والنظر في عواقبه.
- وهذا خلق عظيم نافع لمن ابتلي بشيء من آفات اللسان، مما يندم عليه الإنسان من الكلام؛ مما يعود عليه بالضرر أو على غيره؛ في الدين أو الدنيا.
- ● وتشبه هذه الوصية ـ في التحرز من آفات اللسان ـ قوله:"من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" وكذا قوله: "وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ".
- ◆ الوصية الثالثة: "وَأجْمَعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي الناس".
- ● هذه في تكميل التوكل على الله وإخلاصه له سبحانه.
- ● والتوكل هو: "الاعتماد بالقلب على الله وحده"، فمن أيس من الناس استغنى عنهم، وافتقر إلى الله وأنزل كل ما يحتاجه بالله وحده، والله كافيه.
- وعلى النقيض من ذلك، من علق قلبه بالناس افتقر إليهم وأذل نفسه إليهم بقدر عدم توكله على الله.. ولا ينفعونه نقيرا إلا بإذن الله.
- ● وهذا الخلق مبني على تحريم المسألة إلا لضرورة وهي ثلاث حالات كما في حديث قبيصة رضي الله عنه عند مسلم: (١٠٤٤) وهي: رجل تحمل حمالة، ورجل أصابته جائحة، ورجل أصابته فاقة. تحل لهؤلاء المسألة بشرط تعليق القلب بالله، ولا تحل لغيرهم.

الدرس الثامن والعشرون من شرح "جوامع الأخبار"

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه، أما بعد..

فهذا هو الدرس **الثامن والعشرون** من دروس شرح كتاب (**جوامع الأخبار**) للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله،

وفيه شرح الأحاديث (٧٢، ٧٣، ٧٤)..

﴿شرح الحديث الثاني والسبعين﴾

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**» رواه مسلم (٩١).

هذا الحديث في ذمّ الكِبْر، والحَث على ضدّه وهو التواضع للحقّ وللخَلْق.

وفيه بيان خطر الكِبر على العبد وأنه من الكبائر التي تمنع من دخول الجنة. وفيه تعريف الكِبْر في الشرع ومعرفة حقيقته.

◆ قوله: "**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ**":

هذا وعيد شديد يُستفاد منه أنّ الكِبْر من الكبائر.

والمراد من هذه الجملة:

- أنه لا يدخلها إلا بعد أن يُعذَّب في جهنم إنْ كان المُتكبّرُ مسلماً.
- وأنه لا يدخلها أبداً إن كان كافراً؛ بمعنى أن الكافر مُتكبّرٌ على الله ورُسله.
- وأنه لا يدخلها أبداً إن كان مُسْتَحِلاً للكِبْر، لأن الاستحلال كُفْرٌ أكبر.

- هذه ثلاث تأويلات لمعنى قوله ﷺ: "**لا يدخل الجنة**". وذكر العلماء غيرها وهذه أهمها.

والمقصود أن نُبَيّن أنه ليس المراد أنّ المسلم المُتكبّر لا يدخل الجنة أبداً؛ لأن من عقيدة أهل السنة والجماعة أنّ عُصاة الموَحّدين لا يُخَلَّدون في النار، أجمع أهل السنة والجماعة على هذه العقيدة خلافاً للوعيدية وهم المعتزلة والخوارج، الذين استدَلُّوا بمِثل هذا الحديث على أنّ أصحاب الكبائر مخَلَّدون في النار. وقد تَبيَّن لك معناه الصحيح؛ وخلاصته أن عُصاة المُوَحّدين تحت المشيئة، إنْ شاء الله عز وجل عذَّبَهم وإن شاء عفا عنهم، ومَن دخل النار منهم فإنه فلا يُخَلَّد فيها.

وعلى هذا المعنى الصحيح تُحمَل جميع النصوص التي جاء فيها نفيُ دخول الجنة أو الخلودُ في النار، إذا أُريد بها الموحدون العُصاة. منها:

- قوله ﷺ: "لا يدخل الجنة قاطع".[1]

-وقوله ﷺ: "لا يدخل الجنَّة قتَّات" أو "نمَّام" وهما بمعنى واحد.[2]

-وقوله ﷺ: " لا يدخل الجنَّة مدمن خمر".[3]

كل هذه النصوص تُحمَل على المعنى المتقدم آنفاً. وأيضاً:

-قوله ﷺ: "مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ[4] خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ[5] بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا».[6]

1- البخاري (٥٩٨٤) ومسلم (٢٥٥٦).

2- أخرجه: البخاري (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥)

3- أخرجه: ابن حبان (٣٣٧٦) وانظر: "الصحيحة" (٦٧٥، ٦٨٧).

4- فيه: أي في الجبل.

5- يجأ: يطعن ويضرِب بها في بطنه.

6- أخرجه: البخاري (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩).

والمراد بقوله "خالدا مخلدا فيها أبدا" طول المُكْثِ، لأنه ثبت في السنة أنّ رجلاً قتل نفسه فغفر اللهُ له بسبب هجرته إلى رسول الله ﷺ.[1]

وقد يُراد من هذا الحديث ظاهرُه إذا استحل الانتحار، يعني أن من قتل نفسه لا يدخل الجنة أبداً، هذا في حقِّ المُستَحِلِّ الذي يَستَحِل قتل نفسه.[2]

◆ وقوله: "من كان في قلبه":

دلّ على أنّ أصل الكِبْر في القلب، فأصلُ الكفر والإيمان، والطاعة والعصيان في القلب، ولكنها ليست محصورة فيه، بل تقع المعاصي والطاعات بالجوارح، كما هو مقرَّر في عقيدة أهل السنة والجماعة.

وذلك أنّ الإيمان يكون بالاعتقاد والقول والعمل، فكذلك ضدُّه وهو الكفر يقع بالاعتقاد والقول والعمل خلافاً لعقيدة المُرجئة.

◆ قوله: "مثقال ذرة":

أي وزن ذرَّة، وهي النملة الصغيرة، فالمراد أنه لو كان الكِبْر شيئاً قليلاً جداً بوزن النملة الصغيرة فإنه يمنع من دخول الجنة على ما بيَّنّا من معنى نفي دخول الجنة، فهذا يبين خطورة الكِبْر، وفضل التواضع لله ولرسله، وللحقّ وللخَلْق.

◆ قوله: "من كبر":

سيأتي معناه لغةً، ثم تعريفه شرعاً من كلام الرسول ﷺ.

◆ قوله: (قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَة):

أي يستفسر؛ هل هذا من الكِبْر؟

1- انظر: صحيح مسلم (١١٦).

2- انظر "شرح ابن بطال" (٩/ ٤٥٣ الحديث: ٥٧٧٨).

❖ فقال ﷺ: "إن الله جميل يحب الجمال":

-هذه الجملة فيها إثباتُ صفة الجَمال،

-وصفة المحبة لله تبارك وتعالى بما يليق بجلاله وكماله، ليس كأحدٍ من خلْقِه سبحانه وتعالى.

-وفيها أيضا: أنّ الله يحب الجَمالَ من عباده فيما ليس بمُحَرَّم، وكل ما يحبه الله فهو إمّا واجبٌ أو مندوب.

فدَلَّ هذا الحديث أنّ التَّجمُّل فيما أباح الله مستحَبّ، سيّما إن كان لإظهار نعمة الله عليه، فهذا أيضا من التحدث بنعمة الله. ولماذا لم نقل إن التجمل واجب؟

الجواب: لأنه لم يرِد في الحديث صيغة أمر، والوجوب لا يثبت إلا بالأمر.

❖ ثم قال: "الكبر بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ الناس":

فبيَّنّ ﷺ معنى الكِبْر في الشرع أحسن بيان. وقبل ذلك نُبيّنُ معناه في اللغة حتى يتوضّح المعنى:

-الكِبْر والكبرياء والتَّكَبُّر: تُطلَق في اللغة بمعنى العظَمة والتعاظُم. يُقال (أكْبَرْتُ الشيء) أي استعظمتُهُ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾[1]، أي: أعظَمْنَه. وقال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ (٥١)﴾[2]، أي ممّا يَعْظُمُ في عقولكم.

-والكِبْرُ في الشرع هو: (بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس)،

وفي رواية هو: (سَفَهُ الحقِّ وغَمْصُ الناس)، وهما بنفس المعنى.

1- [يوسف: ٣١]

2- [الإسراء]

-و"**بَطَرُ الحقِّ**": إبطالُه، أي أن يجعله باطلاً فلا يقبله، قال تعالى:﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا﴾[1] أي خرجوا (دَفْعاً للحقّ).

-والبَطَرُ والبَطْرُ - بالفتح والتسكين - بمعنى واحد، مِن (بَطَرَ بَطِرَ) وهو في **اللغة: الإبطال والإهدار**. وله معانٍ أخرى لا تتعلق بهذا الحديث منها (**الشَّقّ والطغيان**)، فالبَطَر يُطلَق في اللغة على ثلاثة معانٍ: الشَّقّ والطغيان والإبطال، والذي يهمّنا هنا معنى (الإبطال).[2]

و"**سَفَهُ الحقّ**":

جَعْلُه سفاهة فيَرُدُّه.

قال ﷺ في وَصْف المتكبّر: "وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ"[3] أي جعَل الحقَّ سَفَهاً؛ أي جعله جهلاً، فرَدَّه ولم يقبله.

قوله: "**غَمْطُ الناس**":

وفي رواية: "غَمْصُ الناس": أي احتقارهم.

واحتقار المسلم من أعظم خصال الشر، قال ﷺ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ».[4]

فبيَّن الرسول ﷺ في حديث الترجمة أنّ الكِبْر ردّ الحقِّ واحتقار الخَلْق، فالكبر نوعان:

- (الكِبر على الحقِّ) برَدِّه، وهو (بطَر الحقِّ) أو (سَفَهُ الحقّ).

-و (الكِبر على الخَلْق) باحتقارهم وازدرائهم، وهو (غَمْطُ الناس) أو (غَمْصُ الناس).

1- [الأنفال: ٤٧]

2- انظر للمزيد: "تهذيب اللغة" (١٣/ ٢٢٩)، و"لسان العرب" (٤/ ٦٨).

3- أخرجه أحمد (٣٧٨٩، ٣٦٤٤، ١٧٢٠٦، ١٧٢٠٧، ١٧٣٦٩)، وصحيح ابن حبان: (٥٤٦٧، ٥٧٩٦) و"الأدب المفرد" (٥٤٨)، و"الصحيحة" (١٣٤، ١٦٢٦).

4- مسلم (٢٥٦٤).

وكلا النوعين من الكبائر المانعة من دخول الجنة، وإذا كان الكِبر على الله ورُسله فهذا كفرٌ أكبر، والآيات كثيرة في كتاب الله في ذمّ المتكبرين على الله ورُسله وآياته، وفي بيان كُفرهم، وأنّهم مُخَلَّدون في النار، وبناء على هذا فالكِبْر منه كُفرٌ أكبر؛ إذا كان على الله ورُسله وآياته، ومنه ما هو من الكبائر؛ وهو ردُّ الحق واحتقار الخَلق.

ومِن صور الكِبر على الناس:

-الفخر: ويكون بالكلام، كالفخر بالأحساب، أي الفخر بكثرة الأقارب والفخر بالمناقب الحسنة، وهي من خصال الجاهلية.

-والخُيَلاء: وتكون بالمِشية، وبالثياب بِجَرّها وإسبالها خُيَلاء.

-والتبختر: ويكون بالمِشية، ويسمى (المَرَح)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾[1] أي مُتَبَخترا.

والتبختر والمرَح والاختيال قد تتناوب، أي قد تُطلَق بنفس المعنى.

-والصّعار: وهو الإعراض بالوجه، وهو داءٌ يصيب الإبل، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾[2]

والمتكبر يتعاظَمُ في نفسه، وهو حقير عند الله وعند الناس، والمتواضع ذليل في نفسه عظيم عند الله وعند الناس. وقد ورَدت نصوصٌ كثيرة في ذمّ الكِبْر، والوعيد الشديد عليه منها: قال ﷺ مُخْبِراً عن ربّه تبارك وتعالى: «الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ».[3]

وتقديره: (...، قال الله فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ).

1- [الإسراء: ٣٧]

2- [لقمان: ١٨].

3- مسلم (٢٦٢٠).

فيه أنّ الكبرياء والعظمة من خصائص الله تبارك وتعالى، وأنّ الذلّ والتواضع والافتقار من خصائص العباد الصالحين، فمن تكبر فقد نازع الله في خصائصه، وقد خَسف اللهُ بقارون لمّا تعاظَم وتكَبَّر.

فقال ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ، يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»،[1]

وقال ﷺ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الخَبَالِ».[2]

هذا حالُ المُتكبّرين يوم القيامة،

-فحَرِيٌّ بالمسلم - سيّما طلاب العلم - أن يحرصوا على التواضع، وأن يحرصوا على قبول الحق من أي طريق جاء، وأن يعرف المرء قدْر نفسه، وأن يتواضع للحقّ وللخَلق، فهذا فيه رِفعة الدارين، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة.

-وأيضاً يجب أن يتواضع العبدُ لربّه وأن يذلّ له سبحانه، فإنّ **العبودية هي:" كمال المحبة مع كمال التَّذلُّل والتعظيم لله عزوجل"**،

فلا يليق بمَن شأنه التّذلل أنْ يتعاظم وأن يتكبّر، فإنّ الله عز وجل تَوَعَّدَهُ بأن يقصمه، أو أن يعذّبه كما جاء في الأحاديث.

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

1- البخاري (٣٤٨٥، ٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨) واللفظ له.

2- أخرجه أحمد (٦٦٧٧) والترمذي (٢٤٩٢) وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ»، والنسائي في "الكبرى" (١١٨٢٧)، وحسّنه الألباني في "المشكاة" (٥١١٢) وغيرها

﴿شرح الحديث الثالث والسبعين﴾

قال المؤلف رحمه الله تعالى: (عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ». رواه مسلم (١٠٥٤).

¤ مفردات الحديث:

"أفلَح": مِن الفلاح وهو الفوز، وبقاء الخير،

و"الفوز" هو: النجاة من الشر، والظفر بالمطلوب.[1]

فالمُفلِح هو الفائز ببقاء الخير، والفائز بالنجاة من الشر، ولذلك عرَّف بعضُ العلماء الفلاحَ أنه: (النجاة من المرهوب وحصول المطلوب).[2]

"رُزِق": أُعطِيَ، قال تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾[3] أي أعطوهم منه.

"كفافاً": من الكفاف، وهو (ما يَكُفُّ عن الناس وليس فيه زيادة).[4]

وقال ابن الأثير: (الكَفَاف: هُوَ الَّذِي لَا يَفْضُل عَنِ الشَّيْءِ، وَيَكُونُ بقَدْرِ الحاجةَ إِلَيْهِ).[5]

ويُطلَق الكفاف على القوت، **والقوت** هو: **(ما يسُدُّ الرمق)**.

"قَنَّعَهُ": من القناعة وهي الرضا بما رزق اللهُ، قَنَّعَهُ أي رضّاه برزقه. وأصلُ القناعة مِن (قَنِعَ - بالكسر - يَقنَعُ قناعةً إذا رضي بما أعطاه الله.

أمّا القُنوعُ: فهو السؤال.

فيقال: **(قنَع قُنوعًا، وقنِع قناعة)**.

1- "لسان العرب" (٢/ ٥٤٧).

2- انظر "تفسير السعدي" الآية: (٩١) من سورة المائدة، و"مجموع فتاوى ورسائل الشيخ العثيمين" (٩/ ١٥٩).

3- [النساء: ٨]

4- "لسان العرب" (٩/ ٣٠٦).

5- "النهاية في غريب الحديث والأثر" لأبي السعادات ابن الأثير (٤/ ١٩١).

قال الأزهري: (وَيُقَال قَنَعَ يقنَع قُنوعاً، إِذا سَأَلَ، وقَنِع يقنَع قناعةً، إِذا رَضِي، الأول بِفَتْح النُّون من قنَع، وَالْآخر بِكَسْرِهَا من قِنع).[1]

قوله: "آتاه" - بالمَدّ - أعطاه، و"أتاه" - بالقطع - جاءه، قال تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ﴾[2] أي: أعطاهم الله.

وقال تعالى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾[3] أي: جاءهم عذابُ الله من حيث لم يحتسبوا، وهو أنه قذف في قلوب بني النضير الرعب.

¤ الشرح

فهذه الخصال الثلاث؛ مَن حازها حصَلَ له الفلاح والسعادة في الدارين وهي: الإسلام والكفاف مع القناعة.

❖ أمّا الإسلام فقال «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ**» فالذي لا يسلم لا يفلح، لأن الله لا يقبل من العباد دينا غير الإسلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[4]، أي الدين الذي يرضاه ولا يقبل غيره؛ الإسلام.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[5] أي لا يفلح، لأن ما سوى الإسلام باطل.

فالذي يرفض الإسلام مجرم شقيّ خاسر في الدنيا والآخرة، قال تعالى فيه: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[6]

1- "تهذيب اللغة" (١/ ١٧٢).

2- آل عمران: (١٤٨، ١٧٠، ١٨٠)، النساء: (٣٧، ٥٤)، التوبة: (٥٩).

3- [الحشر: ٢].

4- [آل عمران: ١٩]

5- [آل عمران: ٨٥]

6- [طه: ٧٤].

والذي يقبل الإسلام هو الفائز السعيد بإيمانه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ☆ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[1]

هذه عقيدة كل مسلم بلا خلاف، ولا عبرة بما شاع من كلام الجهلة الذين يفسرون قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[2]؛ بأنه يَسَعُ الإنسان أن يُسلم أو لا يُسلم!! وأنّ هذا من حرية الأديان!

فهذا باطل. وهذا لا يُعرَف عن أحد من أهل العلم، هذا لا يقوله إلا الجُهّال أو الذين في قلوبهم مرض الذين تلقفوا هذا القول عن الكفار والمنافقين.

بل المراد من هذه الآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾: أنّ الحق واضح والباطل واضح، والمرء قادر على أن يختار بنفسه من غير إكراه، ثم يتحمّل تبعة اختياره، فإن اختار الإسلام فله الجنة، وإن اختار الكفر فله النار.

تأمّلْ الآية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، أي كل شيء واضح، والمرء يختار الإيمان أو يختار الكفر، ثم يتحمّل تبعة ذلك، لأنه سبحانه بيَّن في الآيات أنّ المؤمن في الجنة، وأنّ الكافر في النار، فبين أن المؤمن قد ﴿اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾[3]، وأن الكفار ﴿أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[4].

فأين الإقرار على الكفر؟! الإنسان قادر على الاختيار لكنه مأمور بالإيمان فإنْ كَفر يُعَذَّب، هذا كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[5]، هذا للتهديد وليس للتخيير، لأنه مأمور بالإسلام ولا يجوز له أن يختار الكفر؛ مع أنه قادر على الاختيار؛ هذا حتى تقوم الحجة على العباد، والله لا يرضى لعباده الكفر، قال تعالى:﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[6] فتوعد الظالم

1- [طه: ٧٥، ٧٦].
2- [البقرة: ٢٥٦]
3- [البقرة: ٢٥٦]
4- [البقرة: ٢٥٧]
5- [الكهف: ٢٩]
6 [الزمر: ٧]

بالنار ووعد المؤمن بالجنة، فقال عن الظالمين وهم الكفار: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[1]،

ثم قال عن المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ☆ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[2].

ثم يأتي أحمق أو منافق ويقول بحرية الاعتقاد وحرية الأديان! ويتلاعب بتفسير القرآن على هواه.

وفي حديث الترجمة ربط الرسول الفلاح بالإسلام، فقال:

"قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ" فدل أن الذي لا يسلم لا يفلح أبدا.

◆ ثم قال:"وَرُزِقَ كَفَافًا":

وتقدم شرح معنى الرزق ومعنى الكفاف في اللغة.

والمراد من هذه الجملة: أنّ السعيد مَن كان حاله وسطاً بين الغنى المُطغي، والفقر المُدقِع الذي يدفع المرء إلى الحاجة إلى الناس ولا يجد ما يكفيه.

فقد استعاذ الرسول ﷺ من الفقر الشديد، فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ: "اللهُمَّ فَإِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ،..."[3] فاستعاذ من شر الغنى المطغي، ومن شر الفقر الشديد.

والفقر الشديد يختلف عن الكفاف، فالكفاف هو أن يجد ما يَكُفُّه عن المسألة، أي أن يكفيه ولا يزيد عن حاجته، ولكن الفقر الشديد يُحوِجُه إلى الناس.

1- [الكهف: ٢٩]

2- [الكهف: ٣٠، ٣١]

3- مسلم (٥٨٩)

كما واستعاذ الرسول ﷺ من الدَّين، وسأل الله الغنى، والمقصود غنى الكفاف، وكان الرسول ﷺ يخشى على أمته الغنى المُطغي، فقال: «... ، فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ». وفي الرواية الأخرى عند البخاري قال: "وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ".[1]

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله من شر فتنة الغنى كما تقدم، ويسأل الله الكفاف، فكان يدعو ويقول: "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا" وفي رواية: "كفافا".[2]

والقوت: هو ما يسُدُّ الرَّمَق، أي لا يزيد عن الحاجة.

ولكنّ هذا الكفاف لا ينفع بلا قناعة، فإن كثيرا من الناس يعيش حياة الكفاف ولكنه لا يقنع بالكفاف فهو غير راضٍ عن ربّه. ولذلك قال:

- "**وقنّعه الله بما آتاه**": أي رضّاه بما رزقه.

والقناعة فضلٌ من الله ونعمة، وهي سرّ السعادة وراحة البال وطمأنينة القلب. فالقناعة تعني الرضا عن الله، وهذه والله مِن أجَلِّ النِّعَم، فإن الغنى غنى القلب، وليس الغنى عن كثرة المال، كما أخبَر النبي ﷺ فقال: "ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكنّ الغنى غنى النفس".[3]

هذه هي حقيق القناعة، هي غنى النفس ورضاها عن الله، فهذا يُورِثُ ويثمر راحة البال؛ وهذه نعمة عظيمة، فإنها من نعيم الجنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥)﴾[4]

أي: يصلح حالهم، وهذا من نعيم الشهداء في الجنة! فالذي يعيش في هذه الدنيا مرتاح البال فهو في هذه الخصلة يتنَعَّم بما يتنَعَّم به الشهداء في الجنة!

1- البخاري (٤٠١٥، ٦٤٢٥) ومسلم (٢٩٦١).

2- البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥).

3- البخاري (٦٤٤٦) ومسلم (١٠٥١).

4- [محمد].

(بال النفس): ما يهمها وهو الاكتراث، ومنه يقال: لا يُبالي، أي لا يكترث، ويطلقل "البال" على النفس وما يخطر فيها عموما.[1]

وإذا كانت السعادة في الرضا ولو بالقليل، فإنّ الشقاوة في الطمع بالمزيد ولو مَلَكَ الكثير، فالذي يطمع بالمزيد لا يشعر بالسعادة، وهذا نراه كثيرا، بعض الناس يمتلك الملايين وتجده ساخطا كأنه لا يجد قوت يومه!

ويروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (الطمع فقر، واليأس غنى)[2]

هذا من الحكمة والله، حقا إن الطمع فقرٌ، الطمّاع فقير ولو ملَكَ ما ملَكَ من الدنيا، وأما الذي ييأس مما في أيدي الناس، ويُوَطِّن نفسه على القناعة والرضا برزقه، ويقطع الطمع بالمزيد من هذه الدنيا فإنه يستغني عنها.

وتجد الطماع دائما لا يرتاح أبداً، بل تجده يحسد غيرَه، ويتحسّر على حاله، ويخاف من قادم الأيام... مع أنه قد يكون غنيا جدا.

وهكذا: فالغِنى المُطغي ضرر، والفقر المُنسي ضرر، والخير في الوسط وهو الكفاف مع الرضى.

والله عز وجل عليم حكيم، خبير بعباده، يرزق لحكمةٍ، ويمنع لحكمة. يجب على المسلم أن يؤمن بهذا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[3]

الله عز وجل خبير بصير بما يصلح العباد، فكل ما بنا من غنى أو فقر فهو بتقدير الله عز وجل، والله عز وجل لا يبسط الرزق على بعض الناس حتى لا يطغوا، وينزل بالقدر الذي ينفعهم. أرأيتَ هذه الأمطار لو نزلَت دفعة واحدة، ماذا كان يحصل؟ لكن تنزل الأمطار قطرات صغيرة جداً، فتنفع ما شاء الله أن تنفع.. وهكذا الأرزاق ينزلها الله بالقَدْر الذي ينفع العبد ولا يضرّه.

1- "تهذيب اللغة" (١٥/ ٢٨٢)، "مقاييس اللغة" (١/ ٣٢٢).

2- انظر "الزهد للإمام أحمد" (٦١٤)، و"الزهد لابن المبارك" (٦٣١، ٩٩٨).

3- [الشورى: ٢٧].

ومَن كان لا يُصلِحُه إلا الغنى، فإنّ الله يُغنيه، وقد يُغني اللهُ عز وجل من يشاء من عباده للبلاء، فإذا رأيتَ أن الله فتح الدنيا على قوم فاسقين، فاعلم أنه استدراج. وهذا كثيرٌ في زماننا، فلا تغتَرَّ أيها المؤمن بانفتاح الدنيا على أعداء الله المشركين.

والنصوص كثيرة في هذا لا نريد أن نسترسل في ذِكرها.

فإنّ ممّا يُريح قلبَ المؤمن أنْ يوقِن أنّ الرزقَ بيد الله وحده، وأنه يُنزِلُه بعلمه وحكمته، فمَن علَّق قلبَه بالرزاق وتوكَّلَ عليه أفلَح، ووجد السعادة.

ومَن علَّق قلبَه بالرزق والمتاع والمال تَعِسَ ولم يأتِه من الدنيا إلا ما كتبه الله له.

فالمراد من هذه الجملة: أن يُعَلِّقَ المسلم قلبه بالرزاق لا بالرزق، وبالخالق لا بالخَلق، فهذا مِن أحسن وأقوى أسباب السعادة وراحة البال في الدنيا والآخرة.

﴿شرح الحديث الرابع والسبعين﴾

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عِظْنِي وَأَوْجِزْ. فَقَالَ: إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعتذر مِنْهُ غَدًا، وَاجْمَعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي الناس». رواه أحمد.

هذا الحديث إسناده ضعيف لكنه حسن بشواهده.[1]

واشتمل الحديث على ثلاث جُمَل من الوصايا الجامعة النافعة:

- الوصية الأولى: "إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صلاة مودع"

أي كأنها آخر صلاة، فمَن صلى صلاته على هذا النحو أتقنَها على أكمل وجه. فهذا فيه حَثٌّ على الإحسان في الصلاة، أي إتقانها وإتمامها ظاهراً وباطناً.

-أمّا إتقانها ظاهراً: فبالاطمئنان فيها، وتكميل أركانها وسننها الظاهرة، وهذا يقتضي اتّباع السنة وتعَلُّم فقه الصلاة، ومعرفة شروطها وأركانها وسننها.

-وأمّا إتقانها باطناً:

فبالخشوع، وهو "**إحضار القلب**".

أصل الخشوع في القلب، والجوارح تَبَعٌ له، فيقع الخشوعُ في القلب أولاً، وبالجوارح ثانياً.

وبإصلاح النية، وذلك بإخلاص الصلاة لله وحده.

فبالاطمئنان ظاهرا وبالخشوع باطنا تصلح الصلاة. والاطمئنان في الأركان الظاهرة ركنٌ من أركان الصلاة لا تَصِحُّ الصلاة إلا به، فقد أمَرَ الرسول ﷺ المُسيء صلاته أن يعيد الصلاة ثلاث مرات، ثم علَّمَه فرائض الصلاة دون سننها لأهمية الفرائض ولحاجته الماسة إليها، فعلَّمَه الأركان التي لا

1- أخرجه أحمد (٢٣٤٩٨) وابن ماجة (٤١٧١) بإسناد ضعيف، وله شواهد من حديث ابن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وأنس، ومن حديث عمر معلقاً، وأيضاً من حديث سعد بن عمارة وله صحبة، موقوفا عليه، وله حكم الرفع كما قال الألباني، وحسّن الحديث الألباني بشواهده في الصحيحة (٤٠١)، وانظر "الصحيحة" (٣٥٤)، (١٩١٤). و"الضعيفة" (٣٨٨١).

تَصِحّ الصلاة إلا بها، وذكر معها شرطين من شروط الصلاة؛ وهي الطهارة واستقبال القبلة، لحاجة السائل إلى ذلك، كما قال أهل العلم.

ومما علَّمَه في هذا الحديث: "الاطمئنان في أداء الأركان" فهو ركن في كل ركن، وجميع ما ذُكِر في حديث المُسيء صلاته يعد من أركان الصلاة.[1]

هذا ما ذكر في حديث المسيء صلاته. ويضاف إليها: النية، والقعود للتشهد الأخير، والترتيب بين الأركان. هذه الثلاثة أجمعوا عليها.[2]

وأما الخشوع: فليس ركناً، لكنه جوهر الصلاة وروحها، ويقِلُّ أجر الصلاة ويزداد بحسب الخشوع.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾[3]

قال السعدي: (والخشوع في الصلاة هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضرا لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدبا بين يدي ربه، مستحضرا جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثابا عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها). انتهى.

هذا لقوله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عُشْرُهَا، تُسْعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا نِصْفُهَا».[4]

فهذا التفاوت في الأجر بناءً على الخشوع؛ أي بناءً على حضور القلب، وبقدر ما يستشعر المصلي في نفسه من قُربِه من ربه تبارك وتعالى.

1- وللفائدة نذكر أركان الصلاة وهي: القيام، وتكبيرة الإحرام، والفاتحة، والركوع، والرفع منه، والاعتدال قائما، والسجود، والرفع منه، والجلسة بين السجدتين، والاطمئنان في كل ركن.

2- انظر "المجموع" للنووي (٣/ ٤٦٣) (٣/ ٥١٢)

3- [المؤمنون]

4- أخرجه أحمد (١٨٨٧٩، ١٨٨٩٤) وأبو داود (٧٩٦) والنسائي في "الكبرى" (٦١٤، ٦١٦) وابن حبان (١٨٨٩). وصححه الألباني في "صحيح أبي داود" (٧٦١) وفي " صحيح موارد الظمآن" (٨١).

وإنّ أول عِلْمٍ يُرفَع من الناس الخشوعُ في الصلاة، حتى لا ترى خاشعاً، كما جاء في حديث عند الترمذي (٢٦٥٣)، وأصل الخشوع في القلب، والجوارح تَبَعٌ له، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح.

وهذه الجملة "صل صلاة مودع" فيها حَثٌّ على الاطمئنان في الأركان الظاهرة، وعلى خشوع القلب، واستحضار عظَمَة الله عز وجل، فإنك في صلاتك تناجي ربك وتُكلمه، والله عز وجل يسمعك ويراك ويجيبك.

وهذه الجملة "صل صلاة مودع" داخلة في إحسان العبادة، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك.

قال ﷺ:"اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ"[1] قالها لعدد من الصحابة منهم عبد الله بن عمر ومعاذ وغيرهم.

وقال ﷺ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلاَتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ،...".[2]

والمناجاة: الحديث من قُرب، فالمصلي يناجي ربه، والله يسمعه ويراه، مَن استحضر هذا كله وصلى صلاة مودع، فإنه يُحسِّن صلاته ويُكَمِّلها، فلا يَنقصها ولا ينقرها ولا يسرح خارجها.

❖ الوصية الثانية:

"ولا تكلم بكلام تعتذر مِنْهُ غَدًا":

وفي رواية قال: «وإياك وما يعتذر منه».[3]

هذه الوصية في حِفْظ اللسان، والتَّرَيُّث قبل الكلام. والحديث في آفات اللسان وخطره طويل، ولكنه أرشَدَ في هذه الوصية إلى أدبٍ عظيم المنفعة، وهو أن تتريَّث قبل أن تتكلم، وتنظر في عواقب الكلام قبل أن تنطق به؛ هل هذه الكلمة التي سأنطق بها سأعتذر منها إذا قلتُها أم لا؟ تدبَّرها وتأمَّلها وقَلِّبها على كل الوجوه قبل أنت تتكلم بها، فإن كانت ممّا يجب الاعتذار منه، والرجوع عنه، فلترجع عنها الآن قبل أن تقولها، فهذا أسلم وأحسن، فإنّ الكلمة إذا خرجت من فمك ملكتكَ، وقد لا تستطيع التراجع عنها.

1- أخرجه أحمد (٦١٥٦) والنسائي في "الكبرى" (١١٨٠٣)، وانظر "الصحيحة" (١٤٧٣، ١٤٧٤، ١٤٧٥).

2- أخرجه البخاري (٤٠٦، ٤١٣، ٤١٦، ٤١٧، ٥٣١، ٦٤٢، ١٢١٤، ٦٢٩٢) ومسلم (٥٥١).

3- أخرجه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٢١٩٩) وانظر "الصحيحة" للألباني (١٤٢١، ١٩١٤، ٢٨٣٩)

وهذه الوصية عامّةٌ في جميع الكلام، من كلام الكفر والمعصية والفساد والإساءة وغير ذلك، كم من كلمة تمنى قائلها أنه لم يقلها، وعاش بعد أن قالها نادماً عليها، ويعتذر من الله منها ويستغفره عليها، أو يعتذر من الناس منها!

فإذا روَّض أحدُنا نفسه على هذا الخُلُق العظيم، وهو التَّرَيُّث في الكلام والنظر في عواقبه، فسوف نتجنّب الكثير من الكلام السيء، الذي يجر علينا الشر في الدنيا والآخرة.

وهذه الوصية تشبه قوله ﷺ: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"، هذه كهذه، كلاهما في تَرْكِ ما يضرّ وما لا ينفع من الكلام. وكلا الجملتين يعين على حِفْظ اللسان، فاللسان شرُّه عظيم جداً.

وتشبه قوله ﷺ: "وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ" متفق عليه.

وكثيرٌ من الكلام يندم عليه الإنسان إذا لم يراع هذه الوصايا، فتجد أكثر الناس يهرفون بالمُحَرَّم من الكلام، وبالفُحش وبالقذف وغير ذلك.. وهذا كله يحتاج العبد أن يعتذر غداً منه بين يدي ربه عند الحساب.. وأنّى له أن يعتذر!

وكثيرٌ من الأقوال يقولها الناس فيما بينهم، ثم يذهب القائل يعتذر من الناس على ما قال.

فما أحسن هذا الخُلُق لمن تحلّى به؛ أن يكُفَّ المرءُ لسانَه عمّا يُعتَذَرُ منه، فإنه وقايةٌ من الشرِّ قبل وقوعه، ووقاية من آفات اللسان الكثيرة الخطيرة.

◆ الوصية الثالثة:

"وَاجْمَعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي الناس"

هذه الوصيّة في تكميل التوكل.

فإنّ مِن كمال التوكل أن يستغني العبد بقلبه عن الناس، فإن الرغبة إلى الخلق من نقصان التوكل، فمَن أيس من شيء استغنى عنه.

وهذا أمْرٌ قلبي مبني على تحريم المسألة إلا لضرورة، فإنّ الله تبارك وتعالى حرَّم سؤال الناس أموالهم إلا في ثلاث حالات ورَدَت في حديث قبيصة بن مخارق الهلالي رضي الله عنه، في صحيح مسلم (١٠٤٤)*

* عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ، قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَلَكَ بِهَا، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: " يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ رَجُلٍ، تَحَمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا".

وخلاصة الحديث أنّ المسألة حرامٌ إلا في ثلاث حالات:

-الأولى: تحل المسألة لرجلٍ تحمّل حَمالة: أي ذهبَ مالُه كله أو رَكِبَتْه الديون وهو يصلح بين عشيرتين.

-الثانية: رجلٌ أصابته جائِحةٌ اجتاحت ماله: وهي الآفة في الثمار أو الدوابّ تذهب بكل ماله، أو المصيبة العظيمة كالحريق أو الفيضان أو السرقة تذهب بكل المال.

-الثالثة: رجلٌ أصابته فاقة: وهي الفقر الشديد حتى لا يجد ما يسُدّ الرمق.

هؤلاء يجوز لهم أن يسألوا، وقال ﷺ بعد أن ذكَرهُنّ: "فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا".

و (السُّحْت): هو المال الحرام.

فبيَّن الحديثُ أنّ الأصل في المسألة التحريم، إلا هذه الثلاث، وثمّتَ أدِلّةٌ كثيرةٌ على تحريم المسألة، وهي معلومة في السنة. لأن المسألة مِن أكل أموال الناس بالباطل، ولأنها أيضاً تُنافي التوكل على الله، وتقدح فيه. فإنّ مَن علَّق قلبَه بشيء وُكِلَ إليه.

قال ﷺ: «مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ، لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْشَكَ اللَّهُ لَهُ بِالْغِنَى، إِمَّا أَجَلٌ عَاجِلٌ، أَوْ غِنًى عَاجِلٌ».[1]

وهنا إشكال: فقد تقدم في حديث قبيصة أنّ مَن أصابَته فاقة يجوز له أن يسأل، وظاهر هذا الحديث أنه لا يجوز. فما الجواب؟

1- أخرجه الترمذي (٢٤٢٦) وقال حديث حسن، وأبو داود (١٦٤٥)، انظر "الصحيحة" للألباني (٢٧٨٧)، ومسند أحمد (٣٦٩٦، ٣٨٩٦، ٤٢١٩)، والنسائي في "الكبرى" (٧٨٦٩).

الجواب: لا تَعارُضَ بينهما، والجواب مِن وجهين:

-الأول: أنّ النهي هنا مُتَعَلِّقٌ بالقلب. فله أن يسأل الناس، ولكن مع تعليق قلبه بالله، فالمعنى أن مَن علَّق قلبه بالناس لم تُسَدّ فاقّتَه، ولو كان يحِقُّ له أن يسأل.

-الثاني: أنّ النهي هنا على الكراهة، أي يكره له أن يسال ويُستحَبّ له أن يصبر على الفاقة، ويُنزلها بالله توكلت على الله.

والصارِف إلى الكراهة هو حديث قبيصة، هذا إذا لم يصل إلى حدّ إتلاف النفس، فإنْ وصلَت الفاقة إلى حدّ إتلاف النفس فتجب المسألة.[1]

ويشهد لمعنى هذا الحديث قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ (٣)﴾ [الطلاق]

والأدلة كثيرة في النهي عن استشراف المال وإتْباعُه النفس، أي التَّطَلُّعُ إليه بالقلب، ينبغي أن يكون المال في يدك وليس في قلبك.

فمن الأدلة على ذلك:

قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِينِي العَطَاءَ، فَأَقُولُ: أَعْطِهِ أَفْقَرَ إِلَيْهِ مِنِّي، حَتَّى أَعْطَانِي مَرَّةً مَالًا، فَقُلْتُ: أَعْطِهِ أَفْقَرَ إِلَيْهِ مِنِّي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خُذْهُ، فَتَمَوَّلْهُ، وَتَصَدَّقْ بِهِ، فَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَإِلَّا فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ»[2]

أي والذي لم يأتِك على هذه الصفة فلا تتطلع إليه بقلبك.

ومِن ذلك: عموم قوله ﷺ: "وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ".[3] فيه قطع التعلق بالخلق.

1- انظر "شرح ابن بطال" (٣/ ٥٢٠).

2- البخاري (١٤٧٣، ٧١٦٣) ومسلم (١٠٤٥).

3- أخرجه أحمد (٢٦٦٩، ٢٧٦٣، ٢٨٠٣) والترمذي (٢٥١٦).

وعموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1] قال البغوي في تفسيرها: (قال أبي بن كعب: من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه حسرات، ومن يتبع بصره فيما في أيدي الناس يطل حزنه، ومن ظن أن نعمة الله في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل عمله[أو: علمه] وحضر عذابه).. انتهى. أي دام عذاب نفسه بمد عينيه إلى نعمة مفقودة وإهماله النعم الكثيرة الموجودة.

وعن حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى»[2]

وقال عليه الصلاة والسلام: «اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ»[3]

وتقدم الكلام عن العِفَّة عن المال، وهو قوله "ومن يستعفف يعفه الله" فهو مِن هذا الباب لأنه يدخل فيه العِفَّة عن المسألة.

قال الحافظ ابن رجب: (وَقَدْ تَكَاثَرَتِ الْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَمْرِ بِالِاسْتِعْفَافِ عَنْ مَسْأَلَةِ النَّاسِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُمْ، فَمَنْ سَأَلَ النَّاسَ مَا بِأَيْدِيهِمْ، كَرِهُوهُ وَأَبْغَضُوهُ؛ لِأَنَّ الْمَالَ مَحْبُوبٌ لِنُفُوسِ بَنِي آدَمَ، فَمَنْ طَلَبَ مِنْهُمْ مَا يُحِبُّونَهُ، كَرِهُوهُ لِذَلِكَ)،

ثم قال: (وَأَمَّا مَنْ زَهِدَ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَعَفَّ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَهُ وَيُكْرِمُونَهُ لِذَلِكَ، وَيَسُودُ بِهِ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ أَعْرَابِيٌّ لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ: مَنْ سَيِّدُ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ؟ قَالُوا: الْحَسَنُ، قَالَ: بِمَ سَادَهُمْ؟ قَالُوا: احْتَاجَ النَّاسُ إِلَى عِلْمِهِ، وَاسْتَغْنَى هُوَ عَنْ دُنْيَاهُمْ) "[4]

1- [طه: ١٣١]

2- (البخاري ١٤٧٢)

3- البخاري (١٤٢٧، ١٤٢٩، ١٤٧٢) ومسلم (١٠٣٣).

4- جامع العلوم والحكم" (٢/ ٥٠٢ الحديث٣١).

فهذه ثلاث وصايا جامعة نافعة في بابها:

- الأولى: في تكميل الصلاة وإحسانها.
- والثانية: في حِفْظ اللسان والتَّرَيُّث قبل الكلام.
- والثالثة: في التوكل على الله باليأس مما عند الناس، فمَن أيِس من شيء استغنى عنه.

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

أسئلة الدرس الثامن والعشرين

السؤال الأول: عرف الكبر في الشرع.

الجواب: هو: "**بَطَرُ الحق، وغمْط الناس**". أو "**سَفَهُ الحق وغمْصُ الناس**"

السؤال الثاني: ما معنى قوله: "**لا يدخل الجنة قاطع**"؟

الجواب: أي لا يدخلها المسلم قاطع الرحم إلا بعد العذاب إن شاء الله أن يعذبه. وليس المراد أنه لا يدخلها أبدا.

السؤال الثالث: أجب بنعم أو لا.

١- قوله في حق المسلم: "**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**" معناه لا يدخلها ابدا. **الجواب**: (لا).

٢- بطر الحق هو رده وإبطاله. **الجواب**: (نعم).

٣- غمط الناس وغمص الناس معناه احترامهم. **الجواب**: (لا).

٤- غمط الناس وغمص الناس معناه احتقارهم. **الجواب**: (نعم).

٥- الكفاف هو الفقر المدقع. **الجواب**: (لا).

٦- الكفاف هو ما يكف عن سؤال الناس وليس فيه زيادة. **الجواب**: (نعم).

٧- الاطمئنان في الصلاة ركن من أركان الصلاة. **الجواب**: (نعم).

٨- الخشوع في الصلاة ركن من أركان الصلاة. **الجواب**: (لا).

٩- لا يحل سؤال الناس مطلقا. **الجواب**: (لا).

١٠- تحل المسألة لمن أصابته جائحة أو فاقة. **الجواب**: (نعم).

السؤال الرابع: اختر الإجابة الصحيحة.

- (**صل صلاة مودع**) معناها:

أ. أن يقول الإمام للمأمومين: "صلوا صلاة مودع".

ب. أن يودع المصلي هذه الدنيا إذا صلى.

ج- أن يحسن صلاته كأنه لن يصلي غيرها.

د- جميع ما ذكر.

الجواب: (ج).

- جملة:" **لا تكلم بكلام تعتذر منه غدا**" معناها:

أ. اعتذر عن الخطأ اليوم قبل الغد.

ب. أن تتريث قبل أن تتكلم وتنظر في عواقب الكلام.

ج. جميع ما ذكر.

د. لا شيء مما ذكر.

الجواب: (ب).

- المراد من قوله: "**وأجمع اليأس مما في أيدي الناس**":

أ. أن الناس لا خير فيهم.

ب. أن تتوكل على الله ولا تسأل الناس أموالهم.

ج. أنه لا بأس من سؤال الناس عند الفاقة.

د. جميع ما ذكر.

الجواب: (ب).

- الكبر هو:

أ. بطر الحق وغمط الناس.

ب. سفه الحق وغمص الناس.

ج. كل ما ذكر صحيح.

د. لا شيء مما ذكر.

الجواب: (ج).

- معنى قوله: "**لا يدخل الجنة مدمن خمر**" إذا كان المقصود المسلم القاطع؟

أ. أنه سيعذب لا محالة.

ب. أنه لن يدخل الجنة أبدا.

ج. أنه لا يدخلها إلا بعد العذاب إن شاء الله أن يعذبه.

د. أنه كافر.

الجواب: (ج).

- معنى قوله: "**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**" إذا كان المقصود المتكبر المشرك شركا أكبر؟

أ. أنه سيعذب لا محالة.

ب. أنه لن يدخل الجنة أبدا.

ج. كل ما ذكر.

د. أنه لا يدخلها إلا بعد العذاب إن شاء الله أن يعذبه.

الجواب: (ج).

... والحمد لله على فضله...